● **المبحث الثانى: الاعتدال فى المعاملات المالية:**

النص المحورى الذى يحدد دور الأقلية فى الاعتدال فى المعاملات المالية هو قول الله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ص: ٢٤].

ففى الآية استثناء للذين آمنوا وعملوا الصالحات من حكم عام يكشف عن الطبيعة الغالبة على معاملات البشرية فى الأموال، والهدف منه بيان أن الذين توفر فيهم الشرطان الأساسيان للاستقامة وهما: الإيمان بالغيب، والعمل الصالح النافع للإنسانية، لا يمكن أن يصدر عنهم سلوك سيء فى المعاملات لوجود ما يمنعهم عن ذلك وهو الشرطان السابقان، ولكن الآية بعد ذلك تكشف عن نسبة هذه الطائفة التى تتميز بهذه الخصوصيات بقوله تعالي: ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ ومنه ينتج أن الذين يحرصون على الاعتدال فى المعاملات المالية التى تحدث بين الخلطاء قليلون جدا، كما يفيد ذلك الحرف «ما» فى العبارة السابقة، إذ جاء «للإبهام وفيه تعجب من قلتهم»[١] وقد ذهب الزمخشرى إلى أن هذا النص المحورى قصد بذكر حال الخلطاء فى هذا المقام "الترغيب فى إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة"[٢].

فلماذا يقل المعتدلون فى المعاملات المالية؟ أليس المنطق يقضى أن يكون الاعتدال هو الصفة الغالبة فى أحوال الخلطاء والشركاء حرصًا على استمرار عملهم، وحصول الخير بجملتهم، وتأكيد الثقة فيما بينهم؟

لما كان الاعتدال فى المعاملات المالية بين الشركاء يتطلب الاتزان النفسى فى علاقة الإنسان بالمال، وكانت طبيعة الإنسان ميالة إلى حب المال حبا عظيما كما صورها القرآن الكريم بقوله تعالي: ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾ [الفجر: ٢٠] وقوله: ﴿ **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ [العاديات: ٨] فالآيتان تبينان هذه الطبيعة الغريبة فى الإنسان، بحيث لا يكون حريصًا على طرق جمعه فحسب، بل هو

---

(١) الكشاف: ٣/ ٣٧١.

(٢) نفسه.

« حريص بخيل من محبة المال »[1]. قال الزمخشرى: « هو شديد لهذا الأمر وقوى له إذا كان مطيقا له ضابطا.. وإنه لحب المال وإيثار الدنيا قوى مطيق »[2]، وقال « حبا جما كثيرا شديدا مع الحرص والشره ومنع الحقوق »[3].

ولاشك أن التعبير باللفظ (حبا جما) أى حبا شديدا مفرطا يكشف عن شدة هذا التعلق بالمال، بحيث يملك عليه قلبه، ويعمى عندئذ بصره عن أوجه الجمع الحلال فينكب على الحرام، قال ابن عاشور: « تقديم (لحب الخير) على متعلقه للاهتمام بغرابة هذا المتعلق »[4] وقال: « الجم مستعار لمعنى القوى الشديد، أى حبا مفرطا، وذلك محل ذم حب المال »[5].

فمن الطبيعى والحال هذه أن يكون حب المال مفرطا دافعا إلى الجور والظلم والطغيان من أجل تحصيله من جهة، والحفاظ عليه من الضياع والانتقال الذى به تحصل المنفعة العامة من جهة أخرى، وقد كان من آثار هذا الحب الكبير النتائج التالية:

١- الإقبال على أكل أموال الناس بالباطل: فلم يمنعهم ضميرهم حتى من أكل أموال اليتامى ظلما بصور شتى، قال تعالى: ﴿ **وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا** ﴾ [الفجر: ١٩]. أى تأكلون « تراث اليتامى، وكذلك كان أهل الجاهلية يفعلون، يمنعون النساء والصبيان من أموال مورثيهم »[6] ولهذا السبب نهى القرآن فى موضع آخر عن هذا الفعل الشنيع بقوله: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾ [النساء: ٢] أى أعطوا اليتامى أموالهم التى ورثوها عن آبائهم وأهليهم، ولا تستبدلوها، وقد نهوا عن ذلك لأنهم كانوا فى الجاهلية - لعدم الدين الذى هو ضمام حدوث الإيمان والعمل الصالح - لا يتحرجون عن أموال اليتامى، فكانوا يأخذون الطيب

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤/٥٤٢.
(٢) الكشاف: ٤/٢٧٩.
(٣) نفسه: ٤/٢٥٣.
(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/٥٠٦.
(٥) نفسه: ٣٠/٣٣٤.
(٦) التحرير والتنوير: ٣٠/٣٣٤.

والجيد من اليتامى ويبدلونه بالردىء من أموالهم يقولون اسم باسم ورأس برأس فنهاهم الله عن ذلك مبينا أنه (كان حوبًا كبيرًا) أى إثما عظيما، لأن العرب كانت تخلط إلى جانب ذلك نفقتها بنفقة أيتام فنهوا عن ذلك[1].

٢- عدم التبين فى وسائل تحصيل الثروة: إذ تكشف الآيات عن «حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق تورث القلوب كزازة وقساوة، وكان ضعف اليتامى مغريًا بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث، منهم فى صور شتى وبخاصة ما يتعلق بالميراث، كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهره بارزة فى المجتمع المكى قبل الإسلام، وهى سمة الجاهليات فى كان زمان ومكان حتى الآن»[2] ذلك لأن هذا الحب الشديد للمال قد أوقع الإنسان فى الحرص على اكتسابه بوسائل غير الحق كالغب والاختلاس والسرقة وأكل الأمانات[3].

٣- الامتناع عن فعل الخيرات: لأن حب المال والتعلق الشديد به يمنع صاحبه من فعل المعروف، لذلك قال تعالى: ﴿**كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ [الفجر: ١٨]، أى «تحبون المال حبًا كثيرًا طاغيًا، لا يستبقى فى نفوسكم أريحية ولا مكرمًا مع المحتاجين إلى الإكرام والإنعام»[4].

٤- انتشار الشح: قال ابن عاشور: إن فى خلق الإنسان الشح لأجل حبه المال[5]، لذلك نبه القرآن على خطورة هذا الخلق بقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [التغابن: ١٦] فجعل وقاية النفس من مرض الشح طريقًا إلى حصول الفلاح.

إذا كانت هذه هى نتائج حب المال فمن الطبيعى أن يقل أصحاب الخير، ويكثر خلطاء السوء، فيحق على الإنسانية قول الله تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ لأن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥/٩.
(٢) فى ظلال القرآن ٦/٣٠/٣٩٠٦.
(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/٣٣٤.
(٤) فى ظلال القرآن، ٦/٣٠/٣٩٠٦.
(٥) التحرير والتنوير: ٣٠/٣٣٤.

الاستقامة فى المعاملات تتطلب التقوى والالتزام بالتشريعات التى من شأنها تنظيم الحياة، وهذه تستوجب الإيمان والعمل الصالح، وهما قليلان كما بينا فى الفصول السابقة، لذلك قل المعتدلون فى كل المعاملات المالية بين الخلطاء، مع أن المنطلق يقضى أن يحرص الإنسان على الاعتدال فى التصرف حفاظا على تبادل المصالح، ولكن حب المال يعمى العين فيقضى على المنطق لتسود الفوضى العارمة فى الحياة وما يتعلق بها من معاملات، وسيبقى الاعتدال مرهونا بالاستقامة، وهى موقوفة على الإيمان والعمل الصالح، بل إن العمل الصالح مرتبط بالتقوى «لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧١].

وجملة القول: إن جمع المال بمعنى التكديس مرض فاحش يبعث على الخسران فى الدارين، قال ابن الجوزى: :رأينا من كان شَرِهًا فى جمع المال فحصل له الكثير منه وهو مع ذلك حريص على الازدياد ولو فَهِمَ علم أن المراد من المال إنفاقه فى العمر، فإذا أنفق العمر فى تحصيله فات المقصودان جميعا»[1].

* * *

(١) صيد الخاطر: ١٦٧.